مجلة الأزهر ١٢ يونيو ١٩٦٢

التنافس السلمي حول الثقافة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ١ —

تمهيد :

أثيرت في الآونة الأخيرة مشكلة الحرب الباردة التي تدور رحاها بين المعسكرين المتنازعين في ميدان جديد لم يسبق أن تناولته تصريحات الساسة أو تداولته أقلام الكتاب والمعلقين على الأنباء العالمية في أجهزة الإعلام المختلفة ، ونعني به « الميدان الثقافي » .

فقد ظل الصراع المرير بين الكتلتين الكبيرتين منذ نشب في أعقاب الحرب العالمية الثانية قاصراً على الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية بوصفها المحور الرئيسي الذي يدور حوله النزاع حتى يوشك أن يهوي بالعالم من جراء هذا الانقسام في أتون حرب جديدة مدمرة تقضي على حضارة الإنسان ، وتعيده إلى عصر الهمجية الأولى .

وأصبحت قضية نزع السلاح أخطر القضايا التي يواجهها عالم اليوم منذ انتهى الرأي العام العالمي إلى أن عقد « معاهدة نزع السلاح » هو الحل الحاسم لمشكلة الحرب الباردة ، والعلاج الناجع للأدواء التي نجمت عنها ، وأغرقت الشعوب في دوامة من القلق والتوتر والخوف على مصير الجنس البشري ، ومن ثم ارتفعت الأصوات من صفوف الدول المحايدة داعية إلى تضافر الجهود الصادقة البناءة في داخل الأمم المتحدة وخارجها للحث على إبرام معاهدة بين الدول الذرية لحظر التجارب النووية ونزع السلاح نزعا شاملا .

غير أن الدعاة إلى سيادة العدل الدولي ، واستتباب السلام العالمي قد شغلتهم متابعة المعركة السياسية والاقتصادية الدائرة بين المعسكرين والبحث عن سبيل لإيقافها ، فلم يتبينوا من خلال الغيوم الكثيفة التي رانت على العلاقات الدولية ذلك الجانب الهام الذي تمخض عنه النزاع وهو الصراع الثقافي .

الحرب الباردة في الميدان الثقافي :

ولئن كانت الحرب الباردة في الميدان الثقافي هي إحدى المشكلات الفرعية التي نجمت عن الصراع السياسي بين المارد بن الجبارين ، فإنها لا تقل خطراً عن غيرها من الأزمات الدولية وهي بالتالي تستوجب دراستها ، ومناقشة ما تسفر عنه تلك الدراسة النظرية من آراء ومقترحات ، ووضع الأنسب منها في موضع التنفيذ . ويمكن من هذا السبيل المشاركة الإيجابية في قضية السلام والتمهيد لتصفية الجوانب الأخرى من الخلاف .

ذلك أنه مع التسليم بصحة الرأى القائل إن القضاء على الحرب الباردة قضاء جذريا بمنع التجارب الذرية ونزع السلاح كفيل بإزالة كل ما ترتب عليها من آثار ، وإن الصراع الثقافى فى حقيقته لا يعدو أن يكون انعكاسا لهذه الحرب وواحدا من تلك الآثار. مع التسليم بصحة هذا الرأى ، فإن من الخطأ البين أن ندع هذه الأدواء الفرعية تستفحل بدعوى انتظار الوقت المناسب الذى تحل فيه المشكلة الكبرى ، ولاسيما إذا أدركنا أن هذا الحل يقتضى مرحلة طويلة من الزمن للإعداد له وإخراجه إلى حيز الواقع ، وقد تتدهور الأوضاع الدولية فى هذه الأثناء وتنحدر من سيء إلى أسوء .

وضع حد للصراع الثقافى :

إن المبادرة إلى وضع حد للصراع الثقافى فى حينه تنطوى على عمل إنسانى كبير فى سبيل إذابة الجليد بين المعسكرين ، وانتزاع الأعشاب الضارة من الطريق ، وتطهير النفوس من رواسب الأحقاد وافتقاد الثقة ، تلك الرواسب التى تقف عقبة كأداء فى وجه الجهود المبذولة لتخفيف من حدة الخلاف وإعادة الأمور إلى نصابها ونقا لصالح البشرية وتأمينا لمستقبلها .

فالواقع أن منع الصراع فى الميدان الثقافى لا يقل أهمية عن حظر استخدام العلم الحديث فى إشعال نيران الحروب . فالثقافة تؤثر فى الكيان السياسى والاقتصادى للدول مثلما تتأثر به ، بل إن الانقسام الذى يفصل الدول الكبرى إلى فريقين يختلفان فى الأنظمة السياسية والعسكرية والاقتصادية إنما نشأ فى الأصل نتيجة للاختلاف الأيديولوجى ونعنى به الاختلاف فى العقائد والأفكار .

والثقافة هى البوتقة التى تنصهر فيها التيارات الفكرية التى تسود مجتمعا معينا فتميزه عن سائر المجتمعات ، وتقيم بينه وبينها حواجز من اختلاف النظر والحكم على الأمور .

ومن هنا تبرز أهمية معالجة الانقسام الدولى فى الميدان الثقافى وما يستتبعه من إذكاء لهيب الصراع فى الحرب الباردة ، فكما أن الخلاف فى هذا الميدان كان من عوامل الاختلاف فى مختلف النظم ، فإن الحد منه أو تصفيته من أسباب إزالة الجفوة بين المعسكرين والتخفيف بالتالى من حدة الصراع والتمهيد لجو من الثقة المتبادلة فى سبيل استتباب الأمن الدولى ودعم السلام وتحقيق الرخاء للبشرية .

دور الفكر والثقافة فى التطور الإنسانى

فمن نافلة القول أن نقرر ما للفكر من شأن بالغ فى تطور البشرية حتى ليعد بمثابة البنيان الأعلى للمجتمع والإطار المعنوى الذى يضم مختلف الماديات ويشكل أخلاقيات الجماعة وقواعد العرف والسلوك .

وقد كان للنظريات الفلسفية من قديم . وهى تلك التى نبعت من ممارسة الحياة عن طريق الملاحظة والاستقراء والتجربة والاحتكاك بالواقع ـ والرسالات السماوية التى أنزلت على الأنبياء ، الدور الأكبر فى القضاء على العقبات الطبيعية التى تقف فى وجه الإنسان وتحول دون تطلعه إلى آفاق جديدة فسيحة . وكان للمبادئ والأفكار الإنسانية أعظم الأثر فى بناء المدنية واستمرار التقدم على مدى العصور والأحقاب .

والثقافة — فى المجال القومى — هى الركيزة الأولى فى تكوين المجتمع الواحد الذى يتألف من أفراد متجانسين يستظلون بالأبنية العليا التى يشكلها الفكر المشترك وتتحدد تبعا له علاقاتهم بغيرهم من الجماعات البشرية وطرائق تفكيرهم وتصرفاتهم .

غير أن « الثقافة » : كما دلت على ذلك الأحداث التاريخية المتعاقبة — سلاح ذو حدين .

فهى إثراء للبشرية وسبيل لتقدمها إذا استخدمت فى سبيل الخير .

وهى جناية على الإنسان قد تصل به إلى حافة الهاوية إذا أسىء استخدامها فنأى بها أهلها من مقاصدها الحميدة .

فالعلم ـ وهو أهم روافد الثقافة ـ مرتبط فى ميزان الفكر السليم ، بالقيم الخلقية عند الفرد والقيم الإنسانية عند الجماعة . فلا خير فى علم لا ينتفع به فى صلاح النفس .

وويل للعلماء إذا استخدموا علمهم وهو قبس من نور الخالق فى غير صالح البشرية ، إن وزرهم حينئذ يبلغ أضعاف ما يقترفه غير العلماء من آثام .

وكلما كان المفكرون والعلماء فى مجتمع ما ، ذوى نزعات إنسانية تغلب جانب الخير على الشر وتؤمن مستقبل الإنسان فى ظل الحضارة والسلام ، كان هذا المجتمع أقرب إلى المثالية واستطاع أن يقوم بدوره فى تحقيق حياة أفضل للانسانية جمعاء شعارها المعتقدات السمحة والقيم الخلقية الفاضلة .

الثقافة سبيل الإخاء بين الشعوب :

ومن الخير الذى تهدى إليه هذه النزعات الإنسانية أن تباح الثمار العلمية التى جنتها إحدى الجماعات لغيرها من أعضاء الأسرة البشرية وألا تقام الأسوار والحدود لمنع تبادل الفكر والمعرفة بين شعوب الأرض جميعا ، وألا تستخدم الثقافة فى تأريث العداوات والإحن بين الناس .

فالثقافة رسول المودة ومشعل النور للإنسان وينبغى أن تدع الدول أهل العلم والثقافة أحرارا فلا توجههم لخدمة مطامعها أو تشوه إنتاجهم الفكرى الدعاية لمذهبها أو تفرض عليه الحصار فلا يبلغ غيرها من الدول .

الثقافة فى المجتمع الإسلامى :

لقد ازدهرت الثقافة فى المجتمع الإسلامى فى ظل الدولة الإسلامية الأولى ، وقدمت للعالم حضارة زاهرة تتميز بالخصب والتكامل ، فأخرجت الناس من ظلمات الجهالة والعبودية إلى آفاق الكرامة والحرية والمساواة وكفالة الرزق للجميع فى ظل نظم اقتصادية واجتماعية وإدارية تتميز بالكفاية والعدالة وتعمل للصالح العام وفقا لأحكام الشريعة .

وكانت هذه الحضارة على موعد مع التاريخ ، فإن جانبها الإنسانى هو أعظم الجوانب وأكثرها إشراقا . ولم يكن العالم فى جميع مراحل تطوره أشد حاجة إلى الروح الإنسانية - التى تحقق الخير للجماعة ولا تقدس الفرد تقديسا مطلقا - منه فى تلك المرحلة .

فلا غرو أن تقترن الدعوة الإسلامية منذ بدايتها بالنهضة الثقافية القائمة على أسس إنسانية كريمة عادلة ، وأن يكون شعارها العلم للجميع ، فهى تقوم على جناحى المادة والروح معا . وقد جاء الإسلام لتحطيم الطغيان وإقامة العدل وإتاحة فرص الحياة للمحرومين وإرساء مبادئ الحق والمساواة . وبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس كافة فدعا إلى وحدانية الله والإخاء بين البشر ، واهتدى أئمة المسلمين بمبادئ الشريعة السمحة فأدركوا أن السبيل إلى تعارف الناس وتعاونهم هو نشر الثقافة الصحيحة والمعرفة الشاملة بينهم ، فإن ذلك خليق بتقويض الضلالات القديمة وخلق واقع جديد للمجتمع الإنسانى يسير فى هداه حتى يبلغ غايته السامية فى توحيد أفراده وضمان الرفاهية لهم .

الإسلام ثورة وبيئة علمية :

وإن حركة التاريخ وتطوره الدائم وما سجلت صفحاته من وقائع وأحداث تشهد جميعا أن الدين الجديد الذى جاء به « محمد » كان ثورة اجتماعية شاملة بأجلى معانيها ، ومن ثم وعت رسالة الإسلام الدور الضخم الذى يؤديه « العلم » فى بناء الفرد وهو وحدة الأسرة التى تشكل خلية المجتمع ، وأدركت ما تفتحه المعرفة والثقافة من آفاق رحيبة نحو مستقبل حر كريم للإنسان ، وما تفجره من طاقات خلاقة فى الأفراد والجماعات .

ففتحت المغالق وأزالت السدود التى كانت تقف حائلا فى سبيل العلم ، ومهدت له الطريق ليتسلل إلى كل عقل كى يتهيأ لاستقبال الرسالة الإسلامية الكبرى والإيمان بها ، وهى رسالة إنسانية طابعها العلم والحضارة والتقدم . ويتوارد على الخاطر فى هذا الصدد ما عرضه الرسول صلى الله عليه وسلم على أسرى المشركين فى غزوة بدر من إطلاق سراح من يفتدى

منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ، ففى الحق أنها أشبه بفدية النفس بالنفس .

فالجهل عدو النفس البشرية وملقيها فى ركام العدم ، ولكى تبنى دولة عليك أن تحرر النفوس من عبودية الجهالة ، وتضىء بصيرتها بنور المعرفة فتبعثها من الموت إلى الحياة .

والإسلام منذ نشأته أكبر من أن يخوض غمار صراع ثقافى ، فالثقافة فى شريعته حق للناس جميعا ، والعلم فريضة وهو أكرم عند الله من أن يرتزق به أو يحرم منه بشر أو يصبح ميدانا للاتجار والمساومة ، وإن آية الرسول الأولى هى «القرآن» الذى حوى من العلم كل شىء ، وقد جعل الإسلام من اللسان العربى الذى نزل به القرآن لغة المعرفة والحضارة .

والمساواة الإسلامية لا تقتصر على الحقوق السياسية والاقتصادية ، بل تمتد حتى تشمل جميع المناحى الاجتماعية وفى مقدمتها العلم والثقافة . فالعلم حق للإنسان لا يقل شأنا عن حقه فى الحياة الحرة والعيش الآمن الكريم ، فإنه لا حرية ولا كرامة فى ظل الجهالة ، والسبيل الحق لنهضة الجماعة هو نشر الوعى والمعرفة بين أبنائها جميعا .

والإسلام حين يجعل طلب العلم فى مرتبة الفرائض ، ويعلى من منزلة العلماء ، ويجعل من المساجد مدارس لتلقى أصول المعرفة ، ويحث أهله على التماس الثقافات مهما بعدت مناهلها ، إنما يؤكد بذلك دور الثقافة فى تعميق وعى الفرد والجماعة بشئون العقيدة والحياة وخلق مجتمع تتحقق لأبنائه العزة والرفاهية .

الإسلام والتبادل الثقافى :

ويرمى الإسلام كذلك إلى صلاح أمر الأسرة البشرية عن طريق نشر الثقافة المشتركة وتبادل الفكر بين الناس جميعا ، وهو أقرب طريق إلى تعارف الأفراد والجماعات وتجانسهم وتحطيم ما يحول بينهم من أسوار العزلة والفرقة التى تشتتهم شيعا وأحزابا وتجعل بعضهم لبعض عدوا . وهذه هى الغاية الكبرى للعقيدة الإسلامية . فهى عقيدة تحررية كبرى جاءت لتطلق الفرد والمجتمع من إسار الشرك بالله والإضرار بالخلق ولتبدل ظلمات الناس وجهالاتهم نورا ، فيصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين يعملون يدا واحدة فى سبيل التقدم البشرى .

وما كان الإسلام ليحقق مقاصده الرشيدة التى انطوت عليها رسالته العالمية إلا بتحرير العلم والثقافة من شرور الفتنة والاستغلال والتنابذ التى تجعل منهما سلاحا مدمرا يشهره أعداء البشرية فى سبيل تحقيق أطماعهم ومصالحهم الذاتية .

لقد فتح الإسلام كل النوافذ والأبواب ليغشى العلم كل مكان ويعمر كل قلب

وخصه بأكرم الأماكن وهى بيوت الله، وجعل موضعه من المجتمع بمنزلة الروح من الجسد. ولم يحرم الإسلام حتى عداته من حق التزود بالمعرفة لعلهم إذا استنارت بصائرهم وشفت ضمائرهم أن يفيئوا إلى الحق ويجانبوا الشر والعدوان.

وقد أدرك المسلمون الأوائل أن الانقسام الفكرى هو شر المحن التى تبتلى بها البشرية فهو فرع من شجرة الحقد والبغضاء والنزوات الشريرة، وأن القضاء على هذا الانقسام كفيل بتقريب شقة الخلاف بين الناس ومد جسر للتفاهم والتجاوب والموادعة.

ومن ثم كان التبادل الثقافى من أهم الأسلحة التى حاربت بها الدولة الإسلامية فى عصورها الزاهرة عوامل الشر والعدوان حتى تهيأ لها تحقيق غاياتها من خلق مجتمع متكافل حر وتعزيز الأمن والسلام فى العالم، وقد استخدمت هذا السلاح فى موضعه - فلم تجنح به إلى غير ما قصد به. فلا تمييز بين الناس فى حق التعلم والتزود من المعرفة، ولا عصبية، ولا طغيان، بل مساواة وعدل يظلان الخصوم والأصدقاء.

وفى سبيل تحقيق رسالة الإسلام فى تطهير النفس البشرية وإشاعة المساواة فى كافة أرجاء العالم ونشر مبادئ الإخاء بين أبناء الأرض على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباين ألسنتهم ونزعاتهم، سجل الإسلام فى صفحاته الخالدة أعظم المواقف التى التزمها المسلمون الأوائل فى سبيل قضية العلم، إيمانا منهم بقدسيته وفهما لرسالته.

فالإسلام هو دين العلم والعمل وهو - بطبيعته - دعوة إلى الحق صدع بها صاحبها للعالم بأسره. فليضرب أبناؤه فى فجاج الأرض، وليناهلوا من منابع العلم مهما بعدت المسافة وشقت الطريق وليكن البحث العلمى رائدهم فى حلهم وترحالهم ذلك أدنى أن يحقق غاية من أنبل الغايات التى تتوخاها العقيدة الإسلامية. فالمسلم فى سعيه إلى المعرفة يرتاد آفاقا جديدة، ويختلط بأشخاص وجماعات كانت تفصله عنهم هوائق وحواجز شتى. فيتم بذلك لقاء فكرى خالص لوجه الحقيقة صادر عن أكرم حوافز النفس البشرية وهى التآخى والتعاون فى الكشف عن خبايا الطبيعة وحقائق المجهول.

ولا ريب أن هذا اللقاء الفكرى يقرب بين الطبائع المتنافرة ويؤلف بين المذاهب المتناقضة، ويسفر عن نتائج إيجابية للعمل المشترك فى سبيل الصالح العام للبشرية. فهو يوثق العلاقات بين الناس، ويقيم الروابط الودية والصلات الحميدة فتتضاءل مسافة الخلف بينهم، ويفتح السبيل للتوفيق والمصالحة وحسم المنازعات.؟

رائد: عمر فتح الباب